محاضرات في مقياس القيادة في أوقات الأزمات

موجهة الى طلبة السنة الاولى ماستر

تخصص القيادة و تسيير الازمات

من إعداد الاستاذة: بوشارب فوزية

البرنامج:

- مدخل
- تعريف مفهوم الأزمات
- استراتيجية إدارة الازمات
- نظرية جوستاف لوبون في قيادة الحشود خلال الثورات الكبرى
- القوانين الخاصة بـــ: الروح العامة للبون Le bon
- نقد نظرية لوبون: Le bon
- دراسات الكوارث الطبيعية حسب (N.O.R.C)
- نقد المبحث

مدخل:

فالأزمات ظاهرة ترافق سائر الأمم والشعوب في جميع مراحل النشوء والارتقاء والانحدار. في الأحداث التاريخية الكبرى نجد انه بين كل مرحلة ومرحلة جديدة ثمة أزمة تحرك الأذهان وتشعل الصراع وتحفز الإبداع وتطرق فضاءات بِكر تمهد السبيل إلى مرحلة جديدة, غالبا ما تستبطن بوادر أزمة أخرى وتغييرا مقبلا آخر، وكان لنمو واتساع، المجتمعات ونضوب الموارد المتنوعة وشدة المنافسة السياسية والاقتصادية الكلمة الفصل في طول حياة الأزمات إلى حد أصبح تاريخ القرن السابق على سبيل المثال يشكل سلسلة من أزمات تتخللها مراحل قصيرة من الحلول المؤقتة, ومن هنا فقد نشأت أفكار جدية من أجل دراسة وتحليل الأزمة ومحاولة الخروج منها بأقل الخسائر وتأخير الأزمة اللاحقة إن تعذر تعطيلها .

إستراتيجية إدارة الأزمات وفعالية التسيير

يعدُّ مفهوم إدارة الأزمات مفهومًا حديثًا نسبيًّا من حيث تأصيله كفرع من فروع علوم الإدارة والتنظيم، إلا أنه يُعتبر أحد المفاهيم القديمة قدم العمران البشري، مع حاجة الإنسان الدائمة إلى منهجية معينة يتعامل من خلالها مع المشكلات الطارئة والأزمات التي تقابله في حياته اليومية، سواء على المستوى الخاص أو على مستوى عموم الجماعة البشرية.
ولذلك ترتبط عملية إدارة الأزمات وصناعة القرار فيها وتنفيذه بالعديد من الاعتبارات الاجتماعية. وفي الأساس، فإن العملية الإدارية داخل أي مؤسسة عامة أو خاصة، أو أي كيان يأخذ صفة التنظيم بالمعنى الإداري، ذات أبعاد اجتماعية عديدة لا يمكن إغفالها من جانب أي مسؤول في هذه المؤسسة أو التنظيم أو دارس للعلوم الإدارية.
والإدارة -في تصنيف العلوم- هي فرع من العلوم الاجتماعية، وتعني عملية التخطيط واتخاذ القرارات الصحيحة والمستمرة، والمراقبة والتحكم في مصادر المؤسسات للوصول إلى الأهداف المرجوة للمؤسسة، وذلك من خلال توظيف وتطوير والسيطرة على المصادر البشرية والمالية والمواد الخام والمصادر الفكرية والمعنوية.

إن إدارة الأزمات هي الاستعداد لما قد لا يحدث والتعامل مع ما حدث. لا يخفى على المتابع لسير الأحداث بخاصة السياسية منها ما للأزمات بكل أنواعها من دور في تاريخ الشعوب والمجتمعات سواء على صعيد الهدم أو البناء, وقراءة متأنية لدور الأزمة بشكل عام يفضي بنا إلى تلمس خيط يقودنا إلى حقيقة مفادها ان المجتمعات التي اعتمد الهرم القيادي فيها على فرق خاصة وكفوءة في التعامل مع الأزمات كانت أصلب عودا وأكثر على المطاوعة والاستمرار من قريناتها التي انتهجت أسلوبا مغايرا تمثل بالتصدي المرتجل والتعامل بطرق غير مدروسة سلفا مع بؤر الصراع والتوتر ما أدى بالتالي إلى ضعفها وتفككها.

نظرية جوستاف لوبون في قيادة الحشود خلال الثورات الكبرى

تعريف الجماعة: في بعض الظروف يتولد في الجمع من الناس صفات تخالف كثيرا صفات الأفراد المؤلف هو منها، حيث تختفي الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الأفراد نحو صوب واحد فتتولد من ذلك روح عامة وقتية بالضرورة إلا أنها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح وحينئذ يصير ذلك الجمع ذا خصوصية ويصير خاضعا لناموس الوحدة الفكرية مع اختفاء الذات الشاعرة واتجاه المشاعر والأفكار نحو غرض واحد و هما الصفتان الأوليتان للجماعة.

قد تتألف الجماعة من بضعة عشر فردا وقد لا تتوفر هذه الصفة لمئات اجتمعوا اتفاقا وقد تصير الأمة كلها جماعة من دون أن يكون هناك اجتماع ظاهر إذا وقع عليها كلها أثر واحد. "رأينا من رجال الثورة الفرنسية، أفرادا كانوا كالوحوش الضارية وقد كانوا في زمن السلم قضاة من ذوي الفضل أو موثقين أولي سكينة هادئين فلما سكنت العاصفة عادوا إلى سكينتهم وكان لنابليون منهم أعوان مخلصين "(جوستاف لوبون، 1988:ص26).

– حسب حوادث التاريخ فإن المجتمعات الإنسانية عويصة التركيب كالأفراد سواء بسواء.

– ما يحكم الناس مجتمعين إنما هي الأفكار والمشاعر والعادات وكلها أمور موجودة فينا وحينئذ ما القوانين والأنظمة إلا صورة من صور النفس العامة.

– الصوري حقيقي أكثر من الحقيقي في بعض الأحوال "(حرب الكواكب)

– توخي الحذر عند دراسة الأحوال إلاجتماعية لأنها عويصة، مشتبكة يتعذر على الباحث أن يحيط بها كلها وأن يتعرف على ما لها من تأثير وما بينها من تفاعل لأن وراء الحوادث الظاهرة مؤثرات خفية كثيرة جدا (مثلا أمواج البحر المتلاطمة تترجم واقع ما في جوفه).

– بملاحظة الجماعات نراها تأتي من الأعمال بما يدل على انحطاط مداركها انحطاطا كليا ويبدو أنها منقادة فيها بقوة خفية سماها لوبون "روح الجماعات" وهي روح لا شاعرة.

– تتجرد الجماعات دائما عن الشعور بعملها ويكون هذا هو السر في قوتها.

– الحوادث العظيمة الخالدة في بطون التاريخ ليست إلا آثارا ظاهرة لتغير خفي في أفكار الناس.

– إحرج الأزمان في تطور الفكر الإنساني زماننا هذا، وله عاملان أصليان:

1– تهدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التي تتكون منها عناصر المدينة الحاضرة.

2– قيام أحوال جديدة ونشوء أفكار جديدة في الحياة تولدت كلها من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية.

– قوة الجماعات على شاكلة الثورات المختلفة حطمت كل سلطة كانت تتحكم في الناس.

مميزات الجماعة: أهم ما تمتاز به وجود روح عامة تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ويعملون، تخالف تمام المخالفة الكيفية التي يشعر ويفكر ويعمل بها كل واحد منهم على انفراد وذلك كيفما كان أولئك الأفراد وكيفما تباينوا واتفقوا في أخلاقهم وأحوالهم ومداركهم ... فالجماعة عارضة (مؤقتة) متألفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض كخليات الجسم الحي، التي ولدت باتصالها ذاتا أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها، مثلا: إذ

جمعت جوهرين من الأحماض والقواعد تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص مختلفة تماما.

" إن حركاتنا المقصودة لنا أو الشعورية مسببة عن مجموع أسباب لا شعوري متولد على الأخص من تأثير الوراثة فينا وهذا المجموع يشتمل على بقايا الآباء والجدود .... ومنها تتألف روح الشعب أو الأمة" (جوستاف لوبون، 1988:ص28).

إن الصفات العامة المحكومة باللاشعورية الموجود في جميع الأفراد هي التي لها المقام الأول في حركة الجماعات فتختفي قدرات الأفراد العقلية في روح الجماعة وتنزوي بذلك شخصيتهم وبعبارة أخرى تبتلع الخواص المتشابهة تلك الخواص المتغايرة وتسود الصفات اللاشعورية." فالذي يغلب في الجماعات إنما هي البلاهة لا الفطنة " (جوستاف لوبون، 988:ص30).

أسباب تولد هذه الصفات:

لسبب الأول: يكتسب الفرد من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على الاسترسال مما كان يحجم عنه منفردا، ثم هو لا يكبح جماع نفسه لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الأفراد. فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة.

السبب الثاني: من الأسباب التي تولد صفات جديدة وتوحد وجهتها هي العدوى، والعدوى من الظواهر التي يسهل بيانها. وهي كالحوادث المغناطيسية حتى أن الفرد يضحي بمصلحته الذاتية لمصلحة الجماعة، وهذه قابلية مخالفة جدا لطبيعة الإنسان فهو لا يقدر عليها خارج الجماعة إلا نادرا.

السبب الثالث: وهو أهمها حيث يتولد في أفراد الجماعة صفات خاصة متباينة تماما لصفات كل واحد منهم على انفراد، هو قابلية التأثر التي هي أصل العدوى التي سبق الكلام عليها ... وهناك تنطفئ الذات الشاعرة تماما وتفقد الإرادة ويغيب التمييز.

فلا يشعر الفرد بأفعاله ويندفع إلى الفعل المشار إليه اندفاعا لا قبل له بمقاومته والتأثير حاصل للجميع فيشتد بالتفاعل بينهم.

والخلاصة أن انكماش الذات الشاعرة وتسلط الذات اللاشاعرة واتجاه المشاعر والأفكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد والأهبة إلى الانتقال فورا إلى الفعل، هي الأخلاق الخاصة بالفرد وسط الجماعة، فالفرد لم يعد هو بل صار آلة لا تحكمها إرادته.

ومن أجل ذلك يهبط المرء بمجرد انضمامه إلى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية ولعله كان رجلا مثقف العقل مهذب الأخلاق لكنه في الجماعة ساذج تابع للغريزة ففيه اندفاع الرجل الفطري وشدته وفيه عنفه وقسوته وفيه حماسته وشجاعته وفيه سهولة التأثر بالألفاظ والصور ثم فيه الانقياد "ذلك هو السري في أن جماعة المحلفين تصدر قرارات يردها كل من أفرادها إذا عرضت عليه وحده وفي أن المجالس النيابية تسن من القوانين وتقرر من الأعمال ما يرفضه كل عضو من أعضاءها لو كان منفردا. كل واحد من رجال الثورة الفرنساوية كان فردا متنورا ذا طباع سليمة فلما صاروا جماعة لم يحجموا عن تقرير افضع الأعمال حتى اسلموا للإعدام أظهر الناس براءة من الآثام.

– فتتغير أفكار الفرد ومشاعره كليا فيصير البخيل مسرفا والمتردد سريع الاعتقاد والتقي شريرا والجبان شجاعا هكذا قرر الشرفاء لما تحمسوا ليلة 4 أغسطس سنة 1789 الشهيرة التنازل عن امتيازاتهم ومن المحقق أنه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراد لرفضه رفضا بتا.

إنها مادة التاريخ، تلك حال الجماعات التي يستفزها قوادها إلى التقاتل في نصرة الدين أو لتأييد المذهب أو يستحثونها للعمل في سبيل المجد والفخار فيقودونها بلا تعب وبغير سلاح لتخليص حزب الله من يد الكافرين كما في حروب الصليبيين أو للذود عن حرمة الوطن كما

وقع في سنة 1793: نعم هي مادة التاريخ فلو اقتصرنا على تعداد الأعمال العظيمة التي فعلتها الأمم وهي هادئة مطمئنة ما وجدنا في ذلك إلا اليسير.

أخلاق الجماعات:

1) قابلية الجماعات للاندلاع والتقلب والغضبّ:

إنها منقادة عادة إلى العمل من دون أن تشعر بالدافع إليه، وهي بذلك تشبه كثيرا الرجل الفطري، وقد تكون الأفعال التي تصدر عنها كاملة من حيث التنفيذ لكن مع غياب العقل فيها. بل إن الفرد في الجماعة يكون طوعا للمؤثرات التي ترفعه إلى الفعل. فالجماعة ألعوبة في يد المهيجات الخارجية.

شدة تقلب الجماعة تجعل قيادتها صعبة على من يزاولها بقدر ما تتطرف الجماعة في إرادة الشيء تسرع بالعدول عن تلك الإرادة فإنها لا قدرة لها على الإرادة المستمرة كما أنها لا تقدر على إطالة النظر والتفكير.

– قابلية الاندفاع في الجماعة و تقلبها تجعلها كهمجي لا تطيق وجود حائل بينها وبين ما تريد: يشعر الفرد منفردا بعجزه عن احراق قصر أو سلب دكان لكن وسط الجماعة ينساب انسيابا وإن كانت في طريقة عقبة اقتحمها بعنف وشدة. تلك هي قابلية الغضب والاندفاع والتقلب.

2– قابلية الجماعة للتأثير والتصديق:

من أهم صفاتها قابليتها الشديدة للتأثير. إن سرعة تصديق الجماعة والتشويه الذي يعترى الأحداث في مخيلة المجتمعين: إذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتنقلب صورتها في خيال الجماعة بلا إبطاء. لأن الجماعة تفكر بواسطة التخيلات لا علاقة لها بالمعقول.

مثلا: قبل أن يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق أسوار بيت المقدس كان بالطبع قد تخيله أحدهم أو لا فما لبث التأثير والعدوى أن مثلاه للبقية جسما مرئيا.

مثالا آخر: "ترجع ملاحظاتي في فن التأثير في الجموع وضعف قواعد المنطق في هذا الموضوع إلى زمن حصار (باريس) رأيت ذات يوم أناسا يسوقون أحد قواد الجيش العظام إلى سراي اللوفر حيث مقر الحكومة والناس أقداسا من حوله يزمجرون ويتميزون غيظا وهم يتهمونه بأنه كان يأخذ رسم أحد المعاقل ليبيعه للبروسيانيين، فلما وصلوا به خرج أحد أعضاء الحكومة وكان خطيبا ذائع الصيت ليخطب في الناس وهم ينادون الموت الموت عاجلا وكنت أنظر منه أن يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله أن الفريق المتهم هو أحد المهندسين اللذين أقاموا الحصون وأن رسومها تباع في المدينة عند جميع باعة الكتب غير أني بهت. كنت شابا في ذلك الحين – إذ سمعت على النقيض ما ظننت يقول وهو يتقدم نحو الجمع: "سيأخذ منه العدل أخذا لا رحمة فيه فاتركوا حكومة الدفاع عن الأمة (إسم الحكومة في ذلك الحين) تتم التحقيق الذي بدأتموه. وسنزجه في السجن حتى حين" قال هذا فرأيت الثورة قد سكنت وتفرق الجمع ولم يمض ربع ساعة إلا والفريق في داره ولو أنه خاطبهم بما حال بخاطري من الأدلة المنطقية التي اعتقدتها دامغة لمزقوه إربا.

هكذا وقعت جميع التخيلات الاجماعية. نتج من هذا أنه ينبغي النظر إلى كتب التاريخ كأنها كتب أملاها الخيال لاحتوائها روايات وهمية لحوادث وعليه كان التاريخ يخلد الخرافة والأقاصيص.

3- غلو مشاعر الجماعة وبساطتها:

مهما كانت صفات الجماعة ومشاعرها أي سواء كانت طيبة أو رديئة فإن لها صفتين: بساطة للغاية و غلوا للنهاية.

– إن غلو مشاعر الجماعة ينتشر بعامل التأثير والعدوى.

– غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لا تعرف الشك ولا التردد.

– تزداد شدة المشاعر غلوا على الأخص في الجماعة المؤلفة من أفراد غير متشابهين فيتولد عندها من المشاعر وتأتي من الأعمال ما يستحيل صدوره عن الفرد الواحد. وكلما كان العدد كبيرا قويا فيه هذا الاعتقاد وشعر بقوة حاضرة عظيمة: قوة وحشية، وقتية، لكنها هائلة.

غلو مشاعر الجماعات يظهر غالبا في الشّر وهذا هو السبب في سهولة قيادة الجماعة إلى أقبح درجات التطرف متحررين دون سابق عامل الخوف من العقاب. كما يمكن أن تقوم بأكرم الأعمال والإخلاص وارفع الفضائل إذا أحسن التأثير فيها.

– كما أن الجماعة تغالي في مشاعرها فلا يؤثر فيها إلا المشاعر المغالى فيها فالخطيب الذي يريد اجتذاب قلوبها يلزمه الإكثار من التوكيدات الحادة، لأن المبالغة والتوكيد والتكرار وعدم التعرض أبدا إلى إقامة البرهان هي رسائل خطابية، تطالب الجماعة من إبطالها الغلو أيضا في مشاعرهم، فقد لوحظ أنهم يطلبون من أبطال الروايات في المسارح شجاعة وأخلاقا وفضائل ليست لأحد في الوجود الحقيقي.

4) عدم مسالمة الجماعات وميلها إلى التسلط والإمرة والمحافظة على القديم:

لا تعرف الجماعات من المشاعر إلا ما كان متطرفا بسيطا، وهي تقبل ما يلقى إليها من الآراء والأفكار والمعتقدات أو ترفضها كذلك. فالجماعة تحترم القوة وتخضع لها ولا تتأثر بالحسنى إلا قليلا لأنها صورة من صور الضعف في نظرها، لذلك لم تمل إلى رؤسائها الذين عرفوا بالرفق واللين (حالة الرئيس الشاذلي بن جديد/ بومدين) بل إلى الطغاة المستبدين الذين سحقوها. لمثل هؤلاء تقيم الجماعة التماثيل في كل عصر وأوان. فأعز الإبطال لدى نفوس الجماعة من كان شبيها بقيصر: يخلبهم جلبابه ويرهبه سلطانه ويخيفهم صولجانه. "الجماعة في استعداد دائم للانتقاض على السلطان إذا ضعف وهي تحني الرأس أمام الوازع المنيع فإن تناوبه الضعف والقوة عاملته بمقتضى مشاعرها المتطرفة وانتقلت من التنوع إلى

الفوضى وثابت من الثورة إلى الخنوع" (جوستاف لوبون، 988:ص56).و هي بداية نشوء الثورة.

ومن الخطأ أن تعتقد أن الروح السائدة دائما على الجماعات هي الثورة والذي يوجب الشبهة في ذلك إنما هو تعسفها وقسوتها، والحقيقة أن انفجار بركان الثورة منها وصدور أعمال التخريب عنها نزعة عرضية تخمد سريعا لأن خضوعها لعوامل الوراثة ومتى تركت وشأنها ملت الفوضى وسارت بفطرتها إلى الاستكانة والاستعباد.

مثال: كان أشد القوم تهليلا وترحيبا بالقائد بونابرت هم أشد رجال الثورة تغطرسا وتطرفا لما ألجم جميع الحريات وأثقل بيده التي من حديد.

يبلغ احترام الجماعة للتقاليد حد العبادة وتبغض أشد البغض بفطرتها كل جديد – ومن حسن حظ الحضارة أن سلطة الجماعات ما بدأت في الظهور إلا بعد أن تم تحقيق الاكتشافات العظيمة العلمية والصناعية: ولو أن سلطة الديمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع الميكانيكية واكتشاف البخار والسكك الحديدية ما بلغته الآن لاستحال تحقيق هذه الاختراعات ولكان ثمنها الكثير من الثورات وقتل الألوف من الناس.

10- أخلاق الجماعات:

الغالب في الجماعات جهة الشر فيها وانحطاط أخلاقها، لكن قد تتخلق مؤقتا ببعض الصفات كإهمال الذات والإخلاص والتنزه عن الغاية وتضحية النفس والميل إلا الإنصاف. مع ذلك فالجماعة غير مسؤولة عن أعمالها، فمن انخرط فيها أمن العقاب واتبع هواه.

كما إن الجماعة أهل لارتكاب القتل والتدمير بالنار وكل أنواع الجرائم، هي ايضا أهل للإخلاص في العمل والتضحية بالمنافع الذاتية والنزاهة بدرجة أرقى وإلى تلبية من يناديها باسم الشرف والفخار وباسم الدين والوطن. فالجماعة دون الفرد أجل لعظائم الاعمال من باب النزاهة والإخلاص.

مثلا: لوحظ "في قتلة شهر سبتمبر الذين كانوا يلتقطون كل ما وجدوه من أموال ونفيس المتاع ويقدمونه للجنة مع أنه كان من السهل عليهم إخفاؤه، كذلك الجماعة التي وجهت إلى قصر (التويلري) في ثورة سنة 1848 لم يتناول فرد منها شيئا من تلك النفائس التي بهرتها". (جوستاف لوبون، 1988:ص60).

إن الجماعة وإن كانت متكونة من أفراد منحطي الأخلاق تظهر غالبا بمظهر الكمال. هكذا المنغمس في الموبقات والديون والوغد يزمجرون غالبا إذا رأوا منظرا منافيا للآداب.

أفكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها:

– تأتي الجماعة بأشد الأعمال تناقضا وتضاربا.

– عدم قدرة السواد الأعظم على اكتساب الرأي من طريق النظر الذاتي. حال الجماعات أشبه بحال المنوم الذي تقف فيه حركة العقل هنيهة فتحضر في ذهنه صورة مؤثرة جدا لكنها تزول.

لا تعرف التعقل ولا التأمل ولا تعرف اللامعقول.

– لا تتعقل الجماعات إلا بالتخيل ولا تتأثر إلا به.

مثلا: انقطعت أخبار إحدى بواخر الاطلانطيق فظن أنها غرقت وكان لذلك في خيال الجماعات تأثير كبير دام ثمانية أيام ودل الإحصاء الرسمي على غرق 850 مركب شراعي و203 مركب تجاري في سنة 1894 وحدها، ضاع معها من الأرواح والأرزاق ما لا تقدر قيمته وما هو أكبر من قيمة تلك الباخرة ومع ذلك لم يشتغل الناس بتلك الخسارة لحظة واحدة. مثل هذه الحوادث ليست هي التي تؤثر بذاتها في تخيل الجماعات بل المؤثر هو كيفية وقوعها وكيفية تمثيلها.

– الصبغة الدينية التي تتكيف بها اعتقادات الجماعات:

إذا دققنا النظر في اعتقاد الجماعات أيام سيادة الأديان أو في أزمة الثورات السياسية الكبرى رأينا أنها تصبغ دائما بصبغة سميناها بالشعور الديني: وهي عبادة ذات بتوهم أنها فوق الذوات والخوف من القوة الخفية والخضوع الأعمى لأوامرها و الرغبة في نشرها ومعاداة من لا يقول بها: سواء كان محله إلها لا يرى أو معبودا من الحجر أو من الشجر أو بطلا من الشجعان ومن المعلوم أن التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان على الدوام كل شعور ديني. تظهر كذلك معتقدات الجماعات بالخضوع الأعمى والتعصب الوحشي والإكراه في الدعوة. هكذا كان نابليون مدى 15 سنة.

– إن الدولة الرومانية لم تدم بالقهر والقوة ولكن بما وجد في النفس من الإعجاب بها إعجابا دينيا، إنما أطاع القوم لأن الإمبراطور الذي كان يمثل عظمة روما كان يعبد عبادة الآلهة.

– في الثورة الفرنسية كانت الدماء والتوحش والقسوة في الوقائع حيث لم يرى في إبطال ذلك الزمان إلا قطيعا من المتبربرين السفاحين انطلقوا وراء شهواتهم بالاضطهاد والهول ولم يجدوا مانعا يصدهم .

العوامل البعيدة في معتقدات الجماعات وأفكارها:

هناك عوامل بعيدة وقريبة تولد الآراء والاعتقادات:

1) العوامل البعيدة: هي التي تهيئ بعض الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون أخرى، ظهور تلك الأفكار يكون فجأة وهي نتيجة عمل سابق طويل ينبغي البحث عنه.

2) العوامل القريبة: هي التي تأتي بعد هذا العمل الطويل ولا أثر لها بدونه. ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعي إلى الفعل فهي التي تدفع الجماعات فجأة إلى القيام بما تمكن من نفسها. وهي علة القلاقل والاعتصامات والتفاف الجّم الغفير حول رجل يرتفع بذلك إلى الأوج. مثل ما حدث في الثورة الفرنسية، كانت العوامل البعيدة متمثلة في كُتب الفلاسفة وتعسف الشرفاء

وتقدم العلم هي التي هيئت روح الجماعات. ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة الملك في إجراء إصلاحات لا تعد شيئا كبيرا.

من العوامل البعيدة ما هو عام بمعنى يؤثر في معتقدات كل جماعة مهما كانت وفي آراءها وهي: الشعب، التقاليد، الزمن، النظامات والتربية:

1) **الشعب:** متى كملت مميزات الشعب من حيث التاريخ يصير بمقتضى الوراثة، ذا قوه عظمى وتكون له روح ترجع إليها اعتقاداته ونظاماته وفنونه وجميع عناصر مدنيته. كذلك بينا أن قوة الشعب تبلغ حدا يتعذر معه انتقال أحد هذه العناصر من أمة إلى أخرى بدون أن يتغير تغييرا عاما. يستحيل أن تنتقل اللغة أو الدين أو الفنون أو أي عنصر من عناصر المدينة من أمة إلى أخرى إلا إذا أصابها التغير والتحول. إن البيئة والأحوال والحوادث تشخص مقتضيات الزمن الذي هي فيه، وقد يكون لها تأثير كبير لكنه تأثير عرضي على الدوام.

2) **التقاليد:** التقاليد عبارة عن ماضي الأمة في أفكارها وحاجاتها ومشاعرها فهي تشخص نفسية الشعب ولها في الناس تأثير عظيم.

إن الأمة جسم منظم أوجده الماضي فهي كغيرها من الأجسام التي لا تستطيع الانتقال من طور إلى طور إلا بتراكم آثار الوراثة فيها على مهل. والذي يقود الناس لاسيما إن اجتمعوا إنما هي التقاليد ولا يسهل أن يغيروا منها سوى الأسماء والأشكال. فلولا التقاليد ما كان هناك شيء يقال له روح قومية ولا حضارة ممكنة.

إذا زال نفع التقاليد اجتهد الناس في هدمها، الحاصل لا مدنية إلا بالتقاليد ثم الرقي موقوفا على هدمها، إلا إذا تأصلت في الأمة عادات وتمكنت منها أخلاق عدة أجيال تعذر عليها الانتقال وأصبحت كالأمة الصينية غير قادرة على التحسن.

3) **الزمان:** أصاب من قال أن النملة إذا امتد أمامها الزمان وسعها أن تجعل الجبل الرفيع مهادا، والزمان هو الذي كون الجبال من حبيبات الرمال. فهو الذي يولد المعتقدات ثم يميتها ومنه تستمد قوتها وبفعله بتولاها الضعف والانحلال. وهو محضر آراء الجماعات ومعتقداتها، وهو مهيئ التربة التي تنبت فيها ولذلك صح وجود بعض الأفكار في زمن وامتنع وجودها في زمن آخر. لا تنبت الأفكار والمذاهب صدفة، بل لكل واحد منها جذور تمتد في زمن بعيد.

4) **الأنظمة السياسية والاجتماعية:** إن الأمم لا تختار أنظمتها كما تشتهي. فالأنظمة لا تخلق زمانها ولكنها هي التي أوجدها زمانها. كما أن كل نظام لم يستقر إلا بعد قرون عدة ينبغي لتغييره قرون عدة، وما صلح منها لأمة في زمان يجوز أن يكون مضرا في أمة أخرى. على سبيل المثال، تعتبر أعظم أمة في الأرض هي الأمة الانجليزية مع كونها تعيش تحت إمرة حكومة ملكية وإن أكبر أمة حفها الاستبداد هي الجمهورية الاسبانية الأمريكية رغم نظامها الجمهوري الذي يحكمها، ونظام الولايات المتحدة الامريكية التي ترفل في حلل الرخاء والسعادة بفضل أنظمتها الديمقراطية. فلا دخل لتلك الأنظمة لا في سعادة هذه ولا في شقاء تلك والذي يحكم الأمم هو أخلاقها وكل نظام لا يندمج مع هذه الأخلاق ويمتزج بها يكون أشبه بالثوب المستعار وهو ستار لا يدوم.

5) التربية والتعليم: مما لاشك فيه أن التعليم إذا حسنت طرائقه ينتج نتائج عملية ذات فائدة كبيرة، فهو يرفع درجة التهذيب ويؤثر في رقي الأخلاق وينمي الكفاءات الفنية. والمدرسة لا تربي رجالا قادرين على الحياة وإنما تخرج عمالا لوظائف ينجح فيها الإنسان دون أن يهتم بقيادة نفسه ولا أن يتقدم إلى عمل من ذاته. إن الحكومة التي تصنع حملة الشهادات من تلك المختصرات، سيحشد ذلك الجمع الغفير من حملة الشهادات يحاصر جميع الوظائف. يكون " هؤلاء مستعدون لكل نوع من أنواع الثورة والهرج تحت قيادة أي رئيس"(جوستاف لوبون، **1988**:ص106).

العوامل القريبة من أفكار الجماعات:

1- الصور والألفاظ والجمل:

تتأثر الجماعات بالصور، وهي ليست ممكنة إلا باستحضارها في الذهن بالحذق في استعمال الألفاظ والجمل. ومتى كان المستعمل لها بارعا فلها قوة السحر أو أشدها تأثيرا ما كان معناه غير واضع تماما مثل كلمة: ديمقراطية، اشتراكية، مساواة، حرية ...و غيرها والكلمة منبه إذا ترك برزت صورته.

إن من تّأمل لغة من اللغات وجد أن الألفاظ التي تتركب منها لا تتغير مع الزمان إلا ببطء عظيم إنما الذي يتغير على الدوام هي الصور التي تلازم تلك الألفاظ والمعاني.

إن معاني الألفاظ غير ثابتة وهي عرضية أي وقتية، تتغير بتغير الأجيال وتختلف باختلاف الأمم فإذا أردنا إن نؤثر في الجماعات لزمنا ان نعرف معنى الألفاظ وقت مخاطبتها لا معناها القديم.

فمن أهم وظائف سياسة الأمم تسمية المسميات التي صارت الجماعات لا تطيق سماع أسماءها المعروفة بأسماء مقبولة أو على الأقل لا مقبولة ولا مكروهة، فمثلا تمكن اليعقوبيون باسم الحرية والمساواة وهما كلمتان محبوبتان في زمانهما عند الناس من إقامة استبداد ألحق ببلاد الداهومية وتأليف محكمة شبيهة بمحكمة الاضطهاد وإحداث مذابح في الناس شبيهة بمذابح بلاد المكسيك.

فمثلا يرجع فن المحامين إلى اختيار الألفاظ وحسن استعمالها وصعوبة هذا الفن ناشئة من كون المعنى الواحد يختلف غالبا باختلاف طبقات الأمة الواحدة اختلافا كبيرا.

وعليه يعتبر الزمان أهم العوامل في تغيير معاني الألفاظ.

2- الأوهام: خضعت الجماعات منذ بروز فجر المدنية لتأثير الأوهام. فأقامت لموجديها أكثر التماثيل والهياكل والمعابد. وكل ما أبرزه العقل من المستحدثات الفنية أو السياسية أو الاجتماعية فلولاها ما خرج من بربريته الأولى ولولاها لراح مسرعا يتخبط في أودية الخشونة والتوحش. هي خيالات باطلة وهي من بنات الأحلام ولكن هي التي ساقت الأمم إلى إيجاد ما في الفنون من رفيع وجميل وما في الحضارة من عظيم وجليل.

لو أبيد ما في المكتبات العمومية وكسرت جميع التحف والآثار الفخمة التي أبدعتها الفنون والأديان ما بقي في العالم شيء مما ولدته الأحلام وما كانت الآلهة والأبطال ولا الشعراء إذ لا حياة للناس بغير الأمل والرجاء. حمل العلم هذه الأمانة الثقيلة (50) عاما ثم تغلبت عليه قوة الخيال لأنه أصبح غير قادر على الوعد بأدائها كلها عاجزا عن الكذب إلى النهاية.

اشتد ولع فلاسفة القرن الماضي بهدم الأوهام الدينية والسياسية والاجتماعية التي عاش بما آباءنا قرونا وأجيالا. و سارت الفلسفة إلى الأمام ومع تقدمها لم تهيئ للجماعات خيالا يلذ لها ولأن الجماعات لا غنى لها عن الأوهام اندفعت وراء غريزتها وذهبت إلى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة. إن الحقيقة لم تكن أبدا العامل الأكبر في تطور الأمم.

3- التجارب: هي الوسيلة الفعالة لتقرير الحقيقة في نفوس الجماعات وتجارب جيل لا تؤثر غالبا في الذي يليه. ولذلك لا تصلح الحوادث التاريخية للدليل بل تصلح لبيان انه يجب تكرار التجارب من جيل إلى جيل ليكون بعض الأثر.

" اكبر هذه التجارب ثورتنا الفرنساوية لأنها تدل على أننا احتجنا إلى قتل عشرة ملايين من الرجال وإضرام نار الفتن والقلاقل في أوروبا كلها مدى (20) عاما لنعرف أن الأمة لا تخلق جديدا بإرشاد العقل وحده "(جوستاف لوبون، **1988**:ص125).

4- العقل: لا تأثير للعقل في الجماعات، والخطباء الذين عرفوا كيف يؤثرون فيما إنما يخاطبون شعورها دون العقل. وهذه بالضرورة التي تلجئ الخطيب إلى سرعة تغيير الكلام بحسب الأثر الحاصل في نفس السامع هي التي تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل.

- قواعد الجماعات وطرقهم في الإقناع:

ما اجتمع عدد من الأحياء سواد كان حيوان أو بشر إلا جعل له بمقتضى الفطرة رئيسا، والرئيس في الجماعات البشرية عبارة عن قائد.

" ترجع ملاحظاتي في فن التأثير في الجموع وضعف قواعد المنطق في هذا الموضوع إلى زمن حصار (باريس) رأيت ذات يوما اناسا يسوقون احد قواد الجيش العظام إلى سرايا اللوفر حيث مقر الحكومة والناس أكداسا من حوله يزمجرون ويتميزون غيظا وهم يتهمونه بأنه كان يأخذ رسم احد المعاقل ليبيعه للبروسيانيين فلما وصلوا به خرج احد أعضاء الحكومة وكان خطيبا ذائع الصيت ليخطب في الناس وهم ينادون الموت الموت عاجلا وكنت انتظر منه أن يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله إن الفريق المتهم هو احد المهندسين الذين أقاموا الحصون وان رسومها تباع في المدينة عند جميع باعة الكتب غير أنني بُهِت – كنت شابا في ذلك الحين – إذ سمعته على تقيض ما ظننت يقول و هو يتقدم نحو الجميع: " سيأخذ منه العدل اخذاً لا رحمة فيه فاتركوا حكومة الدفاع عن الأمة (اسم الحكومة في ذلك الحين) تتم التحقيق الذين بدأتموه، وسنزجه في السجن حتى حين " قال هذا فرأيت الثورة قد سكنت وتفرق الجمع ولم يمض ربع ساعة إلا والفريق في داره. ولو أنه خاطبهم بما جال بخاطري من الأدلة المنطقية والتي اعتقدتها دامغة لمزقوه إربا". (جوستاف لوبون، **1988**:ص236).

ولقد اسكر "روبسير" أفكار "روسو" فقام يدعوا إليها واستعمل الاضطهاد وسيلة لنشرها.

ليس القواد غالبا من أهل الرأي والحصانة بل هم من أهل العمل والأقدام وهم قليلو التبصر. و الجموع تصغي دائما إلى قول ذي الإرادة القوية الذي يعرف كيف يتسلط عليها ومتى صار الناس جماعة فقدوا إرادتهم والتفوا حولهم.

كان عمل القادة على العموم خلق الاعتقاد في النفوس، لأن الإيمان اكبر قوة في تصرف الإنسان، فمن كان مؤمنا زادت قوته عشرة أمثالها. والذي قام بأكبر حوادث التاريخ أفراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم من الحول إلا الإيمان وليس المستبدون ولا الفلاسفة ولا أهل البأس هم الذين أقاموا الأديان التي سادت على الدنيا واختطوا الممالك. الشاسعة التي امتدت فوق السطحين.

اعتصم عمال شركة الامنيبوس اعتصامهم الأخير في باريس وقبض على الرئيسين اللذين كانا القائدين فبطل الاعتصام لساعته.

تخضع الطاعة بفطرتها لكل من ادعى السيادة عليها.

ينقسم القادة إلى فريقين:

1- قادة أولوا عزم وإرادة قوية لكنها وقتية.

2- قادة ذووا إرادة جمعت بين القوة والدوام، وهؤلاء قليلون.

الفريق الأول: أصحاب حدة ونزق وشجاعة وإقدام. وهم على الأخص نافعون في تنفيذ ما دبر أو كسب الجموع بلا خوف من الخطر، ذلك مثل (ناي) و(مورات) زمن الإمبراطورية الأولى ومثل (غاريبالدي) في عصرنا، هذا كان رجلا هجوم لا ذكاء فيه لكن ذا عزم ، وبذلك تمكن مع نفر قليل من الاستلاء على مملكة (نابولي) القديمة على رغم الجيش المنظم الذي كان يحميها. عزيمة أولائك القادة على قواتها قلما تبقى بعد زوال السبب الذي دعا

إليها. أولئك قادة لا يمكنهم القيام بوظائفهم إلا إذا كانوا أنفسهم مقودين وكان لهم مهيج على الدوام واستولت عليهم يد أو فكر من الأفكار وساروا في طريق مرسوم من قبل.

الفريق الثاني: ذو إرادة ثابتة و تأثيرهم أعظم بكثير وهم الذين نبغ من بينهم أصحاب الأعمال العظيمة كالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وكالقديس (بولص) وكريستوف كولومب و(دولسبس) وكانت لهم الدنيا ابد الآبدين لأن الإرادة التي اتصفوا بها ملكة نادرة.

وسائل القادة في التأثير، التوكيد والتكرار والعدوي:

إذا كانت الحاجة إلى حمل الجماعة على عمل من الأعمال كإحراق قصر أو الاستماتة في الدفاع عن حصن أو معقل وجب التأثير فيها بخواطر سريعة وهي: التوكيد، التكرار والعدوى.

التوكيد: كل ما كان التوكيد موجزا ومجردا عن كل ما له مسحة الحجة والتقرير كان عظيم التأثير. هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التوكيد. كذلك يفعل أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسي، وأهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم.

للتكرار تأثير في العقول. ومتى كثر التكرار تولد من عملهم تيار فكري يعقبه ذلك المؤثر العظيم أي العدوى، لأن الأفكار والمشاعر والتأثيرات والمعتقدات عدوى في الجماعات تماثل في قوتها عدوى المكروبات، وذلك موجود في الحيوانات متى اجتمعت أمر طبيعي، كالفرس يقبع في مربطه فتفعل فعله الخيل كلها وتجزع الشاة أو تضطرب في كركتها فتفعل الغنم مثلها.

بدأت ثورة 1848 في باريس ثم امتدت إلى قسم كبير من أوروبا وهزت أركان الكثير من الممالك. إن لحب التقليد تأثيرا كبيرا في الناس وليس التقليد إلا أثرا بسيطا من العدوى. لأن الجماعات تقاد بالمثال لا بالبرهان. يبلغ تأثيرا العدوى إلى حد أنه يتعدى توحيد الأفكار إلى توحيد كيفية التأثر بالحوادث. والعدوى هي التي تنفر من الشيء في وقت من الأوقات تم ترغب فيه ثانية.

والعدوى هي الأصل في انتشار أفكار الجماعات ومعتقداتها لا الحجج والبراهين، تتولد الأفكار عن طريق التوكيد والتكرار والعدوى.

ومن الأمثلة الملاحظة: تبتدئ العدوى في الطبقات النازلة ثم تصعد منها إلى الطبقات الرفيعة.

يتناول قادة الجماعة الأفكار بعد أن تتمكن منهم ويشوهونها ثم يؤلفون فئة تزيد في تغييرها ثم يبثونها في الجماعات وهذه تضاعف التغيير ثم تصير حقيقة عند العامة وبعد ذلك تتمكن من نفوس الطبقة العليا.

3- النفوذ:

تعريفه: يمكن القول إن النفوذ عبارة عن سلطة رجل أو عمل أو فكر يستولي بها على العقول. وتلك السلطة تعطل ملكة النقد فتملأ النفس اندهاشا واحتراماً. وهو من جنس الاجتذاب الذي يحدث في نفس النائم نوما مغناطيسيا. والنفوذ أعظم مقوم لكل سيادة في العالم إذ لولا هو لما سادت الملوك والآلهة والنساء.

مما يساعد كثيرا على قوة تأثير الأفكار التي بثت في الجماعات بواسطة التوكيد والتكرار و العدوى كونها تنتهي باكتساب قوة تسمى بالنفوذ.

للنفوذ قوة لا تقف معها قوة أخرى، وكل سلطة سادت في الوجود سواء كانت سلطة الأفكار والرجال فهو السبب في قيامها وسيادتها.

قد يجتمع النفوذ مع بعض المشاعر كالإعجاب والرهبة، وربما كان الإتقان أصلا له في أحوال كثيرة إلا أنه قد يوجد بدونهما، كذلك لبعض الكائنات أو البدع تأثير في النفوس وإن كان مما لا يعجب به كالآلهة المنغلبون الذين يوجدون في معابد الهند.

أنواعه: والنفوذ قسمان، النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصي، الأول هو الذي لاسم صاحبه أو ثروته أو شهرته وقد يكون منفصلا عن النفوذ الشخصي.

أما النفوذ الشخصي فهو أمر ذاتي قد يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة ويشتد بانضمامها اليه وقد يكون وحده.

وأكثر النوعين شيوعا هو النفوذ المكتسب أو العرضي فهو يثبت للرجل بمجرد كونه يشغل مركزا أو يملك ثروة أو يتحلى ببعض الألقاب وإن لم يكن له قيمة من نفسه مثلا: الجندي في لباسه وللقاضي في زيه الرسمي نفوذ ما ارتديا لباسهما، ولذلك قال "باسكال" بضرورة الجبة والشعر للقضاة.

فمن خواص النفوذ أن لا يجعل الإنسان يرى الشيء على حقيقته وان يعطل فيه ملكة النقد والتمييز.

أما النفوذ الشخصي فهو صفة تنفرد عن كل لقب وكل وظيفة يتصف بها أفراد معدودون فيبهرون بها نفوس من حولهم ويجذبونها إليهم كالمغناطيس وإن ساووهم في المنزلة بين أمتهم ولم يكن لهم شيء من وسائل التسلط والغلبة ويبثون فيهم أفكارهم وينقلون إليهم مشاعرهم وكانت لهم الطاعة العمياء.

كان هذا النفوذ الكبير لجميع العظماء من القادة كـ: بوذا، عيسى ومحمد (ص) وجون دارك ونابليون.

كان لهم قوة أخاذة قبل اشتهارهم وتلك القوة هي السبب في شهرتهم.[1]

- حدود تقلب معتقدات الجماعات وأفكارها:

1- في المعتقدات الثابتة: إن معتقدات الجماعات أصلا ثابتا ترسب فوقه أفكار متقلبة كما ترسب الرمال فوق الصخر، وعليه تنقسم المعتقدات إلى قسمين:

أ- المعتقدات الدائمة: التي تعمر عدة قرون واليها ترجع مدنية الأمم كلها، كالإقطاع التي سادت أيام حكم الشرفاء والمعتقدات المسيحية وأفكار الإصلاح (البروتستانتية)، وكالجنسية والأفكار الديمقراطية والاجتماعية في أيامنا.

ب- الأفكار الوقتية المتغيرة: وهي مشتقة في الغالب من الأفكار العامة، تظهر وتغيب في الجيل الواحد، كالنظريات التي تسترشد بها الفنون والأدب في أوقات معلومة ومذهب حرية الكتابة (الإنشاء)، ومذهب الطبيعيين ومذهب الصوفية وهكذا. وتلك الأفكار كلها سطحية سريعة التغير.

المعتقدات الكبيرة العامة قليلة جدا وقيامها وسقوطها في كل امة ذات تاريخ يمثلان أعظم دور في حياتنا ولا قوام للمدنية بدونها.

---

[1]_ يقول احد القادة محدثا زميله عن نابليون: " أيها الصديق إن لذلك الرجل الشيطان في نفسي تأثيرا لست أدرك كنهه حتى انك لتراني مع كوني لا أخاف لا الله ولا الشيطان إذا اقتربت منه تأخذني الرعشة كالطفل الصغير" (جوستاف لوبون، 1988:ص150). هذا ما يفعله النفوذ بالنفوس إذ يجعلها تخنع خنوع الذلة والصغار.

من السهل جدا إيجاد فكر وقتي في عقول الجماعات لكن من الصعب جدا تقرير معتقد دائم في نفوسها كما انه من الصعب جدا هدم اعتقاد تمكن منها، ولا سبيل إلى التغيير غالبا إلا بالثورات العنيفة، بل إن الثورة لا تؤدي إلى ذلك إلا إذا اضمحل قبلها اثر المعتقد في النفوس. فالمعتقدات العامة هي دعائم الحضارة. ويوم زوالها هو يوم بدء سقوطها[2].

من الصعب غرس معتقد جديد لكنه بعد أن يتمكن من النفس يدوم شديد التأثير زمنا طويلا فيتسلط على اكبر ذوي الألباب. بدليل إن الأمم الأوروبية دانت لأقاصيص واعتقدتها حقائق لاشك فيها مدة خمسة عشر قرنا. والمتأمل في تلك الأقاصيص يراها أحق بالقوم الهمج كأقاصيص (مولوخ)[3] أوجدت تلك الأقاصيص مدينة جديدة صرفة، وأبصر الناس من وراءها مدى 15 قرنا هاتيك الجنان دانية القطوف وملئت قلوبهم بالآمال.

ومتى تمكنت عقيدة جديدة من نفوس الجماعات أصبحت مصدر نظام ومرجع فنونها وقاعدة سيرها، هنالك سيتحكم سلطانها وتتم غلبتها. فترى أهل العزائم لا يفكرون إلا في تحقيقها، وواضعي القوانين إلا في الأخذ بها، والفلاسفة وأرباب الفنون والكتاب إلا في تمثيلها.

- أفكار الجماعات:

وظيفة الحاكم هي استخلاص ما بقي من العقائد الأصلية وسط التقلبات الصورية وان يميز في معمعة الأفكار المتغيرة ما يرجع منها إلى روح الشعب وعقائده العامة.

تغير الجماعات من عقائدها الدينية والسياسية والظاهر أن التاريخ يؤكد ذلك، سواء كان تاريخ السياسة أو الدين أو الفنون أو الأدب، لأننا إذا نظرنا في التاريخ في الفترة

---

[2]_ عَبَد الرومانيون مدينة روما عبادة المتعصبين فسادوا على الدنيا اجمع، فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما.

[3]_ إله عبده الكلدانيون وأهل قرطاجة وكانوا يحرقون الأطفال قربانا له، ويعتقدون أنه يمد ذراعيه دائما ليتلقاهم.

القصيرة الواقعة بين سنة 1790 وسنة 1820 أي ثلاثين سنة وهو عمر جيل واحد رأينا الجماعات التي كانت ملوكية تحولت فصارت ثورية للغاية ثم إمبراطورية كذلك ثم عادت ملوكية. هذا في السياسية، كذلك الأمر في الدين فإنها كانت كاثوليكية ثم كفرت ثم قالت بالإلوهية ثم رجعت إلى الكاثوليكية الضيقة إلى حد التغالي. وكذلك يتقلب شأن القادة.

إن التقلبات المخالفة للاعتقادات العامة ومشاعر الشعب زائل لا يدوم، لأنه يستحيل دوام الأفكار التي لا رابطة بينها مع المعتقدات العامة ومشاعر الشعب ،لأنها معرضة لتأثير الطوارئ والاتفاق. و مما يدل أيضا على عدم بقاءها أنها تولدت عن طريق الإلقاء والعدوى فهي تولد ثم تموت بسرعة ولقد كثرت في أيامنا هذه أفكار التي لا بقاء لها، لثلاث أسباب:

1- إن الاعتقادات القديمة أخذت تضعف شيئا فشيئا، فلم تعد تؤثر في الأفكار العرضية تأثيرا ينظمها ويهديها وضعف تلك الاعتقادات العامة من شأنه أن يفسح المجال لتولد أفكار خاصة لا رابطة بينها وبين الماضي ولا بقاء لها في المستقبل.

2- إن قوة الجموع تزداد شيئا فشيئا. و هي في تزايد مستمر.

3- كثرة انتشار المطبوعات لما فيها من كثرة الأفكار المتناقضة التي تعرضها على الجماعات فلا تكاد تظهر الفكرة حتى تبطل بظهور فكرة تخالفها وما من فكر ينتشر إلا ويؤول إلى الزوال ومن خلال تلك الأسباب تولدت ظاهرة جديدة في تاريخ البشر ينفرد بها العصر الحاضر وهي ضعف الحكومات عن قيادة الرأي العام.

كان زمام الرأي في الزمن السابق في يد الحكومات وبعض ذوي النفوذ من الكتاب وعدد مخصوص من الجرائد، فأما الكتاب فقد انعدم تأثيرهم، وأما الجرائد فإن وظيفتها أصبحت قاصرة على أن تكون مرآة للرأي وأما السياسيون فإنهم لا يديرونه بل يسيرون خلفه. نتج عن هذا أن رأي الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام السياسة.

أما الجرائد فبعد أن كانت تقود الرأي العام كالحكومات اضطرت إلى التسليم أمام سلطان الجماعات. نعم للجرائد اثر شديد في الناس لكن ذلك سببه أنها صارت مرآة لأرائهم ومتغيرة بتغير أفكارهم المستمر، فهي تسير خلف أهواء الجماعات مكرهة على ذلك بحكم المسابقة والتزاحم وإلا خسرت قراءها.

إذا تمكن رأي واحد من النفوس والجماعات على ما هي عليه الآن من القوة والنفوذ لا يلبث أهله إن يصبروا مستبدين استبداد يذل له كل ما في الوجود ويغلق باب حرية الأفكار وحرية النقد زمنا طويلا.

متى اجتمع قوم وكونوا جماعة، اختلفت أحوالهم النفسية الفردية اختلافا عظيما، و لا تأثير للعقل في الجماعات والذي يؤثر فيها هي المشاعر الغريزية.

تكون الصفات المنحطة في الجماعة ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية.

الجماعات الجارمة: تصدر الجرائم عادة بسبب تحريض قوي ويعتقد الذين ارتكبوها من الأفراد أنهم قاموا بواجب كان مفروضا عليهم وتاريخ جرائم الجماعات يوضح ذلك بأجلى بيان[4].

إن الصفات العامة للجماعات الجارمة هي قابلية التأثر و التصديق والتقلب والتطرف في المشاعر حسنة أم سيئة[5]. فمع القتل بمنتهى الوحشية كانت الأمانة لا تزال ملازمة ي

---

[4]_ من أمثله ذلك قتل مدير سجن " الباستيل" ثَّم ذلك بعد استيلاء الثائرين على هذا الحصن، أحاطت الجماعة الثائرة بالمدير المشار إليه وصارت الضربات تتساقط عليه من كل جانب: هذا يشير بشنقه وذلك بضرب عنقه وثالث بربطه في ذيل فرس، وبينما هو يدافع عن نفسه فرطت منه رفسة أصابت واحد من الجماعة، إذ ذلك اقترح أحدهم أن يقطع المضروب رأس الضارب، فهلل الجميع بالموافقة، وكان المضروب طباخا خاليا من العمل واقرب من أن يكون معتوها ذهب إلى الباستيل" لينظر ماذا يجري هناك. فلما سمع الإجماع ظن أن الفعل مما تقضي به الوطنية، وانه سينال وساما إذا اعدم ذلك الوحش؛ ثم ناولوه سيفا ضرب به عنق المدير وكان غير مشحوذ فلم يقطع فألقاه واخرج من جيبه سكينا صغيرة ذات مقبض اسود واستعان بخبرته في تقطيع اللحوم.

للقتالين فكانوا يظهرون الفضائل ويأبون أن يتناولوا شيئا من نقود المقتولين وحليهم بل يقدمونها للجنة.

مرجعية الأزمات و الكوارث في تظاهرات العنف . دراسة تحليلية وصفية

لقد عرف المجتمع الجزائري سلسلة من الأزمات و الأحداث المتتالية خلال السنوات الأخيرة الماضية، اتسمت اغلبها بعنف. اختلفت اسبابه و طبيعته و اتسم بدرجة عالية من الحدة. امتد هذا العنف مع اختلاف منابعه لسنوات طويلة جدا: الأزمة الاقتصادية لسنة 1986 و ما تبعها من احداث أكتوبر 1988 و افرازاتها لسنوات عنف مسلح، فياضانات باب الوادي، زلزال بومرداس، انهيار سعر المحروقات،...و القائمة طويلة حتى اعتدنا ان ننتظر المزيد دائما. و لا

---

[5] _ **جماعة شهر سبتمبر1792:** حدث تحريض قوي تأثرت به الجماعة التي تحولت الى مجرمة. و هي كارثة شهيرة وقعت ايام الثورة الفرنسية. يعتقد انه قام بالتحريض رجل كان في الاصل طبيبا ثم تحول الى صحفيا دمويا فكان يطلب اعدام مائتين و سبعين ألف نفسا مدعيا أن في ذلك فداء للوطن. و لكن لم يعرف بالتحديد الآمر و المحرض على تخلية السجون و قتل من فيها. كانت الجماعة المنفذة مؤلفة من نحو 300 سفاك و كانت مؤلفة من الغوغاء و هم أقلية و البقية مؤلفة من أصحاب الحوانيت و الصناع في كل حرفة و كل مهنة من حذائين و قفالين و حلاقين و بنائين و مستخدمين و سماسرة و غيرهم.فكانووا و هم متأثرين بالتحريض ، قضاة و جلادين و لم يرووا انفسهم من الجناة بل وقر في نفوسهم أنه واجب وطني من اكبر الواجبات وأول ما يدأو به أن شكلوا محكمة، حيث رأت إن عدد المتهمين كبيرا فقررت أولا قتل الشرفاء والقسوس والضباط وخدام الملك، وأما الباقون فيحكم عليهم بناء على سمعتهم أو شهرتهم. وعندها برزت القسوة والتوحش وكانا يزدادان فظاعة وعنفا في المجامع، إلا أن الغرائز الهمجية لا تمنع من ظهور مشاعر تناقضها من ذلك أن احدهم علم أن المسجونين لم يذوقوا الماء منذ ستة وعشرون ساعة فشرع في قتل السجان وكانوا إذا بَرَّأت المحكمة التي أقاموها واحدا من المتهمين فرحوا وهللوا وانهالوا عليه يقبلونه وصفقوا تصفيقا طويلا ثم انقلبوا يقتلون غيره أكداسا، كانوا يقتلون والسرور لا يفارق محياهم، يُغَنُّون ويرقصون ويُعِدُّون المقاعد للنساء للتفرج على مشهد قتل الشرفاء. وقرروا أن يمشي المتهمون الهوينا بين صفين من القتالين وأمروهم أن لا يضربوهم إلا بظاهر السيوف حتى يطول أمد العذاب. وكان فريقا يأتي بالمتهمين عراة كما ولدتهم أمهاتهم ثم يمزقون أجسامهم مدى نصف ساعة كاملة فإذا تمت للجميع مشاهدة هذا المنظر أجهزوا على المعذبين فبقروا بطونهم، فلما فرغوا من قتل 2100 أو 2500 لاحظ بعضهم أن السجون تضم أناسا لا فائدة منهم كالشحاذين والمتشردين والأولاد وكانوا نحو 50 غلاما بين 12 و18 سنة، رأووا بضرورة إعدامهم وقتلوا جميعا. إن في تاريخ ثورة 1871 أمثلة كثيرة كالتي قدمناها.

نفوّت الاشارة قبل كل تلك الاحداث الى سلسلة الاستعمارات التي مرت على بلادنا كان آخرها الاستعمار الفرنسي و خلالها سلسلة طويلة من الازمات و الآفات و الأوبئة الخطيرة و المميتة .

_ فهل هناك علاقة ابستيمولوجية بين الازمات و الكوارث و تظاهرات العنف في مجتمع ما ؟

_ و هل يمكن اعتبار الازمات و الكوارث كمرجعية لتظاهرات العنف بمختلف اشكاله؟

_ و هل هناك انعكاسات لهذا العنف على السلوكات النفسية و النفسية–الاجتماعية و الاجتماعية للافراد؟

لدراسة هذه الظاهرة سنركز على مجتمعنا الجزائري و نتناول هذا الطرح بالتحليل وفق المنهج الوصفي.

كافتراض اساسي يوجد علاقة بين الازمات و الكوارث و بين العنف. كما نفترض وجود انعكاس مباشر على مختلف سلوكات الافراد في حياتهم اليومية.

فالأجدر ان نعرف مفهوم الكوارث و الازمات: فأي عنف نقصده؟ و ما طبيعة الكوارث و الازمات التي نتعامل معها؟.

ان الدراسات المطروحة في هذا المجال لشديدة التنوع و أصيلة الطرح. حيث لم تعنى ظاهرة العنف و علاقتها بالازمات و الكوارث الطبيعية بدراسة العلماء إلا في القرن 19، حين تصاعد بخار أزمات الثورات أهمها الثورة الفرنسية و التي عقبتها عدة مؤلفات عن الحشود و قوتها في فرنسا ثم ألمانيا فالولايات المتحدة الامريكية. ففي سنة 1892 نبهنا G.Tarde الى ما يمكن ان تقترفه الحشود من جرائم.و بعده جاء طرح G.Lebon حول عنف جماعة الحشود كظاهرة نفسية اجتماعية، فما ان يتشكل حشد، ناتج عن ظاهرة طبيعية او حادث طارئ (كارثة، ثورة،لعبة،...)أو تجمهر مهما كان سببه، الا و يظهر العنف بشكل تلقائي. ضبطه لوبون G.Lebon في نظريته بعدة قوانين أكدت معضمها تجارب و دراسات المدرسة الامريكية نذكر على سبيل المثال لا الحصر دراسة المركز الوطني لدراسة الرأي (C.N.O.R) بشيكاغو و غيرها. أوردت معظم هذه الدراسات تحليلا للظاهرة و ان كان التناول و الطرح يختلف.

ان المنحى الثقافي في تناول هذه الدراسة يقودنا_ مرورا بدراسة ابن خلدون ، مارك كوت Marc COTE ، كاميلري Carmel CAMILLERI و غيرهم كثيرون _ الى دراسة الباحث الجزائري مظهر سليمان الذي اعتبر حكاية الجزائريين مع العنف لا بداية و لا نهاية لها. مجتمع

فرضت عليه الظروف الجغرافية و التاريخية و المناخية حياة متقلبة و قاسية، في بيئة عدوانية، وعرة و غير مستقرة و ذات تضاريس متنوعة و شاسعة، مفتوحة المخاطر على كل الجبهات. هذا ما يزيد من خصوصية كل منطقة في عنفها الجغرافي.

كوَّن الجزائريون في هذه الظروف مجتمعا منغلقا. نواته الأساسية مكونة من نظام اجتماعي تقليدي. مشبع في جوهره برموز العنف التي استدخلها من محيطه العدواني بالأساس. هذا العدوان المتمثل كما سبق و أشرنا إليه في عنف و عدوان المحيط الفيزيقي (زلازل، أمراض و أوبئة خطيرة و قاتلة، الجراد المهلك للمحاصيل المصدر الأساسي لقوت الجزائريين، قلة الأمطار، الجفاف، قلة مصادر المياه الصالحة للشرب، قسوة المحيط الطبيعي،...و غيرها).

الى جانب ذلك و نظرا للموقع الجغرافي للجزائر و ثراء خيراتها الطبيعية، كانت دائما محل عدة أطماع و اعتداءات استعمارية. في الوقت الراهن أثقلت الجزائريين مشاكل من طبيعة أخرى: البطالة، انخفاض سعر المحروقات، انهيار سعر الدينار و انعكاساتها على القدرة الشرائية، أزمات دول العالم العربي و الدول المحيطة،اعتداءات الجماعات الإرهابية المسلحة...و غيرها. هذا ما دفع بالجزائريين إلى تشكيل مجتمع مقاوم، منطوي على نفسه، شديد الحساسية لكل ما هو خارجي، متصلب و جامد لكل تغيير، ممتنع على كل مل هو جديد، لا يثق إلا لما في متناوله. يشيد بخصوصياته و يضرب عرض الحائط كل انتقاد له. مقاوم لكل تغيير و لكل نقد و حاد الطبع.

أفرزت هذه المعطيات ظواهر اجتماعية و نفسية اجتماعية و ثقافية تبدو للملاحظ الخارجي على درجة كبيرة من التعقيد و الغموض و التناقض. و استعصت دراستها على كل باحث عالجها من زاوية خارجية، حيث يقفز طرح التخلف و مشاكله كتفسير جاهز مسبقا لهذه الظواهر. هذا التخلف نتاج سلسلة طويلة من الاستعمار كان آخرها و أبشعها الاستعمار الفرنسي قرابة القرن و نصف القرن. لكن و نحن نعيش في قلب هذا المجتمع الضارب بالجذور و الوجود في أحقاب زمنية غابرة، نرى انه كان و لا زال قائما بخصوصياته و تناقضاته بعيدا عن طرح قضية التخلف

كحاصل مباشر ناتج عن الاستعمار. تتجلى لنا و نحن نتناول دراسته من الداخل بالملاحظة المباشرة و الملاحظة بالمشاركة، كأداتان نراهما الأنجع في دراسة الكثير من الظواهر، أن مؤشرات العنف بارزة و ظاهرة للعيان لا يختلف فيها اثنان. هذه المؤشرات تناولتها كثير من الأعمال الفنية و الأدبية و السوسيولوجية و النفسية،...و غيرها.

لقد تناول الباحثون دراسة ظاهرة العنف من زاويا عديدة، كل تنازلها من منظور تخصصه وخلفيته النظرية. برز الاختلاف جليا بين جموع الباحثين الذين نظرُّوا لأصل بروز ظاهرة العنف. فمنهم من ربطها بمراحل النمو النفسي في الطفولة المبكرة على المستوى الفردي وانعكاس ذلك على الجماعة فيما بعد كطرح خاص بالمدرسة التحليلية ومختلف التعديلات التي جاء بما المحللون الجدد؛ ومنهم من ربطها بحركة الشعوب ومسار الأمم وحركة بناء الحضارات وما أفرزته من تناحر وثورات؛ ومنهم من أعطى تفسيرا نمطيا خاصا يطول كل الوضعيات الإنسانية.[6]

---

[6] _ يرجع غاستون بوتول على سبيل المثال العنف إلى ثلاث عقد وهي:

1- **عقدة إبراهيم:** وهي العقدة التي تعبر من الصراع بين الأجيال جيل الآباء وجيل الأبناء – الآباء الذين سيَغْتصب سلطانهم وأموالهم وكفاحهم الجيل الذي يليهم. ويبدر رمز التضحية بمحاولة ذبح إبراهيم لابنه إسماعيل. ولعل إعدام كثير من ورثة الملوك القدامى كفيليب المقدوني أو إيفان الرهيب أو سليمان الحكيم. لكن انتزع التطور البشري والحضاري العقدة من مجالها الفردي لتختفي وتظهر في الحياة الجماعية. فبعد أن كان الضحايا من المولودين حديثا أو من الأبناء في القرابين للآلهة، تتم التضحية الآن بالشبان في مذابح الحروب.

2- **عقدة كبش الفداء:** تشتمل التنشئة في كل كمجتمع على الإشارة إلى عدو تقليدي معين. وقد يكون هذا العدو قبيلة أو قومية مجاورة تلعب دور العدو التقليدي والموروث. يتحمل هذا العدو باستمرار كل الأزمات والمصاعب ووجوده بشكل خطر على المجتمع، حيث يقول بوتول أن المجتمعات كالأفراد تحس لا شعوريا بالحاجة لإيجاد المبررات. تتراكم المعضلات والاضطرابات وحالات القلق لتعبر عن نفسها بأشكال عدوانية. تتخذ لعدة أشكال فمثلا: يعتبر كل منا سلاح الآخرين سلاحا هجوميا ولكن يعتبر سلاحه الخاص سلاحا دفاعيا. فكبش الفداء يمثل شرط الوعي الجيد في الروح العدوانية.

3- **عقدة ديمو قليس:** يعبر عن الخوف الدائم وعدم الأمن، ذلك الخوف الذي أحس به " ديمو قليس " وهو التابع لأميره "دينيس" ملك سيراقوصة الذي احتل مكانه لعدة أيام ووجد نفسه في مكان سيده يتصدر حفلة فخمة يحيط به خلالها كل رجال القصر وهم ينفذون أوامره. ولكنه اكتشف فوق رأسه سيفا ثقيلا مربوطا بحبل رفيع جاهز للسقوط عليه في كل لحظة وتوجيه طعنة إليه أي أن أميره لا يزال حاضرا من خلال هذا السيف المعلق. يعني هذا الإحساس بضعف مصيرنا الذي يملي علينا الاستسلام والانقياد وأيضا إلى التهديد الذي يثير الغضب وبروز الروح العدوانية. (بلاس وآخرون، 1990)

يعتقد بعض الباحثين مثل: آرثر جانون وجورج سباتش بان جذور العنف تنبع من الاحباطات المبكرة أو التجارب المؤلمة. (توماس بلاس وآخرون، 1990: 53)

و منهم من اعتبر العنف كرد فعل طبيعي فيزيولوجي لخبرة فيزيقية صادمة: صدمة كهربائية، اعتداء، كوارث طبيعية، أزمات، ... الخ.

رأي العلماء والباحثين أن مختلف الأزمات الاجتماعية والكوارث الطبيعية تشكل نوع من العدوان على الإنسان حيث أن كل اعتداء أو عدوان يعتبر من "النتائج المباشرة العامة للإحباط، .... وقد يكون الاعتداء بالطرق البدائية باستعمال القوة البدنية أو باتخاذ مظهر آخر في شكل سب أو هجاء أو غيبة أو نميمة أو ترويج الشائعات. وقد يكون الاعتداء مباشرا على الفرد أو الشيء المسبب للإحباط، فإذا عجزا الفرد عن الاعتداء المباشر على المصدر الأصلي خوفا من العقاب تحول باعتدائه فانزل بفرد أو شيء أخر بينه وبين المصدر الأصلي شبه " (محمد مصطفى زيدان، 1979: 149)

إن فتح مدخل لدراسة العنف المترتب عن مختلف الأزمات والكوارث الطبيعية، يقودنا إلى طرح واسع جدا. نسقط في المقام الأول اعتبار العنف ينحصر في القوة، يقودنا هذا الى مقولة ادونيس: " القوة لا تعني العنف " لان القوة تقع في المجال الفيزيولوجي أما العنف فيقع في المجال السلوكي أو النفسي. (توماس بلاس وآخرون، 1990: 18)

إن المجال النفسي أيضا شاسع وشديد التعقيد، فلماذا ذا لم تفرز كثير من الأزمات عنفا أو عنفا قويا على غرار بعض الأزمات الصغيرة التي أفرزت حركة عنف كبيرة؟ من بين العوامل المؤثرة على ذلك ما أصلح على تسميته علماء الاجتماع بالموقف الاجتماعي وهو:" الاستعداد العقلي والعاطفي للاستجابة إلى ظاهرة اجتماعية معينة بطريقة خاصة كوصف كونها عدوانية أو ايجابية أو سلبية. الوضع العاطفي والعقلي الايجابي أو السلبي للشخص أو الجماعة بالنسبة إلى ظاهرة اجتماعية معينة ".(محمد مصطفى زيدان، 1979: 153- 154)

إنها ميزة جميع الكوارث والأزمات الظرفية ولكنها مع ظرفيتها تشكل سلسلة غير منتهية من الاعتداءات. فهل هناك مجتمع ما لم يتعرض للكوارث الطبيعية والأزمات الاجتماعية ؟ الجواب سيكون حتما لا. لكن هناك تفاوت في حجم ودرجة التعرض من مجتمع لآخر، إضافة إلى أن هناك مجتمعات عانت من عدة أزمات وكوارث أكثر من غيرها لعدة أسباب؛ مع ذلك استطاعت بعض المجتمعات أن تطور وسائل وأساليب التعامل والتحكم في مختلف الأزمات والكوارث التي اعترضتها بفعل تراكم خبراتها مع مرور الزمن والحقبات التاريخية حتى صارت أكثر دراية وخبرة وتحكما في كيفية التعامل معها ومعالجتها على غرار بعض الأمم أو ما تسمى بالدول السائرة في طريق النمو، التي بقيت تتخبط في عنف زاد من شدة تخلفها وعجزت عن التحكم علميا وعمليا في أساليب وآليات التعامل معها. وعليه بقيبت حبيسة التفسيرات الخرافية وتحتكم إلى الدين كإطار مرجعي تفسيري في أغلب الأحيان والتي تعتبر كمرجعية قوية، مع أن الدين ابدأ لم يتعارض مع ضرورة السعي لإيجاد حلولا علمية وعملية ولكن جمدت في شكل تفسيرات لا تخرج عن نطاق العقاب واللعنة الإلاهية.

ركز مارك كوت Marc COTE في جل دراساته على تحليل المحيط الطبيعي وهندسته الطبيعية من جبال، صحاري ،هضاب وغيرها ،وكيفية تقسيم الفرد الجزائري لهذا المجال والتعايش معه . تتسم الطبيعة الجزائرية بجبال قاسية ومغلقة ، بالجفاف و الحرارة و الرطوبة ، انتشار المناطق الجبلية والصحراوية وخصوبتها، هي الخصائص الطبيعية والمناخية للمناطق الجزائرية. تشكل التكوين المجالي في الجزائر من خلال حقبات التاريخ أين نسج المجتمع مع مجاله علاقات معقدة وحتى في بعض الأحيان دالة.

في العقد الأول من الإستقلال كان هذا المجال سلبي يمثل الصفحة البيضاء التي عليها يسجل التاريخ الخصائص المميزة للمجتمع، وعليه أوجدت هذه التدخلات عدم انسجام مجالي حيث اكتشف البلد تدريجيا أبعاد فضاءه في التنمية و التطور .

يعرف كوت المجال الفيزيائي على أنه السند الفيزيائي الذي تسجل عليه كل نشاطات المجتمع، إلاّ أن هذا المجال ليس محايدا دوما و يتدخل وفق طريقتين، أولا: عن طريق شدة غضب قوى كامنة ، ففي حالة الجزائر تمثل قوى لا يمكن إنكارها من مصادر غذائية، أرض فلاحية و غيرها. ثانيا: يتمثل في إختلافات منشأ عدة مناطق طبيعية .

و فيما يخص الشمال الجزائري الموافق لمجال مستمر، بكثافة سكانية عالية و مجهز، يصفها البعض بأنها الجزائر الصالحة أو الهامة على عكس صحرائها القاحلة و وجود سلسلة جبلية عالية و كانت آثار ذلك كبيرة على تنظيم الحياة البشرية .

إن البنية الهيكلية البيومناخية هي عناصر هامة تحدد الإطار الفيزيقي الذي يستند عليه المجتمع. و مجتمع ما قبل الإستعمار كان منظما سياسيا عن طريق السلطة العثمانية. و كان المجتمع مكون أساسا و منظما على مستوى القبائل و سلطة "الجمعة" و الحقوق تختلف دوما من منظمة إلى أخرى و اثناء الحقبة الإستعمارية توزع السكان على طول السلسة الجبلية على غرار السهوب، و اتخذ من الجبال كملاجئ أين استطاعوا استصلاح الأراضي، استغلال مصدر المياه، و اعتبر مجالا آمنا تجاه أخطار خارجية مع وجود نظام انتاج فلاحي من حصد المحاصيل سنويا و تربية المواشي و نسج الصوف. وفي كل هذا يعتبر السوق هو رحم الحياة الريفية و السوق تمثل امتدادا للمجال الريفي. (Marc COTE ,1983) .

و تأسس نمط العلاقة مع المجال قبل كل شيء بحياة داخلية عالية جداً ببناء منازل موجهة نحو الشارع، قرى مغلقة، أرياف، البيوت متراصة و مقنعة وسط منشآت أخرى وكانت هذه الأخيرة تعمل على حمايتها. ولدخول بيت وسط باقي البيوت يجب أخد ممرات ضيقة، صعود سلم و الدوران عدة مرات للعثور على هذا البيت (Marc COTE ,1983). يقول كوت أن الجبال كانت محل نفور الناس منها ما عدا في الجزائر وفي حوض البحر الأبيض المتوسط أين كانت المجال المفضل للسكن والتجمع (Marc COTE ,1971) .

و كما شيد البيت الجزائري من طرف الأفراد أنفسهم يبدو كمجموعة مربعة تتوسطها ساحة حيث جزءها المتوسط هو الذي يمثل الجزء الرئيسي في البيت فحوله تطل المنافد والأبواب عليها والأجزاء الأربعة الأخرى لا تتصل فيما بينها إلا عن طريق هذا الفضاء على مستوى الساحة أين تلتقي التحركات الداخلية و أين تطبخ النساء وأين يلعب الأطفال. تبدو في هذه المنازل ذات المساحة الضيقة انها خاضعة لنظام وهذا حسب الانحدار والشمس وأيضا حسب بعض الممارسات الاجتماعية وفق ثنائية متلازمة : آباء- أبناء ،الداخلي- الخارجي ،خاص- عام ،نظيف- وسخ... و غيرها .

و كل المجال داخل المنزل هو محتل بعناية وكل المنشآت الجزائرية تدير ظهرها للخارج ودوما هي مؤسسة حول مساحة مركزية هذه المساحة تبقى العنصر المنظم للحياة المنزلية وكل التحركات تتم من خلالها وهي نشطة بالحركات والتحركات ."مملوءة بالوسائل "و العلاقات الاجتماعية الجماعية تبقى ضخمة وعظيمة لأن هيمنة الجماعة على الأفراد قوية جداً لحماية الخلية العائلية .لكن عندما بنت فرنسا وحتى الجزائر بعد الاستقلال منازل موجهة نحو الخارج حسب النموذج الغربي حل بالجزائريين ضيق شديد.

إن نمط العلاقة مع المجال حيث العلاقات قائمة قبل كل شيء على حياة داخلية عالية جداً ونمط تنظيم مجالي جعل منه مجالاً منغلاقا ، مندمجا و سلمي ،نمط مهيكل حيث الحدود الفاصلة تنتقل عن طريق وحدة المجتمع الإسلامي. و المجال النسائي

مخالف ومعاكس للمجال الرجالي وله أي هذا الأخير مجال مفتوح ، يتميز بالإقناع أكثر من العمل والنشاط ، و يتميز بروح التضامن عوض روح المبادرة . يلاحظ على السواء في المدن كما في الأرياف : الأرض عارية ، الجدران مسلوخة و المقاعد منخفضة.

أولى كوت أهمية خاصة لدراسة ساحة المنزل أو البيت كمنشئة من المنشآت الجزائرية و التي تتميز بالأهمية البالغة و بها حركية نشطة من الحياة النسائية والأنثوية، فهي المكان الجيومتري للمنزل وللعائلة وحسب تعبير كوت مجالا مقدسا مفتوحا على السماء .

كما أن إبراز الإنتماء للعائلة و"للدوار" وللقبيلة، هي ميزة أي جزائري عند إستجوابه فإضافة إلى كينونته فهو كعنصر من الجماعة وينتمي إليها في مكان معين ومحدد وأيضا ينتمي إلى مجتمع إنساني :فالخلية الأساسية للمجتمع الجزائري هي الجماعة والعائلة تلعب به دورا هاما و أساسيا (Marc COTE , 1983).

إن المجتمع الجزائري مؤسس على نظام علائقي فيما بين الأفراد أكثر منه على العلاقة مع المجال، كما يتميز بتماسك اجتماعي عالي و منظم حسب وحدة سلمية عالية، و يتميز بالمرونة مع كثرة التحرك و الحركة، و تقسم و تحدد المهام بين الرجال و النساء حيث الرجال يعملون في الحقول و النساء يعملن في المنزل (Marc COTE ,sans date) .

إلى جانب كوت اهتم كاميلري Carmel CAMILLERI بدراسة المجتمعات التقليدية حيث تعتبر مجموع البلدان التي أطلق عليها صوفي ألفرد Alfred SAUVY بمجتمعات العالم الثالث لأول مرة، خرجت أغلبها من حقبة الاستعمار على غرار أوربا التي هي رمز "للثقافة الصناعية".

إن خصائص المجتمعات التقليدية التي حافظت لمدة طويلة عليها تتميز بسلوكات متكررة répétitifs و تعمل على إعادة انتاج الماضي أين الشباب في المجتمعات التقليدية مرتبطون جدا بالقيم العائلية وتأثير الثقافة التقليدية تعدل وتصقل نظرة الانسان نحو الخارج.

و يطرح أيضا عدوان ما يسميه بالمحيط الطبيعي من المشاكل الفلاحية ، النمو الديموغرافي، الكوارث الطبيعية، المجاعة، الجفاف وغيرها، أثر كل ذلك على الحياة الاجتماعية

التقليدية. فظهر التمايز بين" الداخل والخارج" للوسط العائلي خوفا من الخارج الذي يتسم بالعدوانية، و صارت للعائلة مكانة خاصة وهامة في المجتمعات التقليدية، و لانها تمثل الداخل الآمن كانت الحياة داخل العائلة تحوي كل أفرادها الذين يخضعون لقوانينها وضوابطها الصارمة، ويقدمون عنها دوما صورة ايجابية للأجانب وهي إحدى المركبات الهامة و الأساسية لقيمة "الشرف".ومما توصلت إليه أبحاثه عن الخصائص العامة للأفراد في مجتمعاتهم التقليدية نلخصها في النقاط التالية : سلطة بارزة للذكور على الاناث حتى صغار الاطفال فلهم سلطة على أمهاتهم وخاصة على أخواتهم اللواتي تكبرنهم سنا. (Carmel CAMILLERI et Claud TAPIA, 1983).

بالرجوع إلى مختلف أدبيات الدراسة قسمنا العنف المترتب عن الأزمات والكوارث الطبيعية إلى ثلاثة أنواع:

1_ العنف الفيزيقي أو المادي: يعتبر العنف الفيزيقي تظاهرة مباشرة لعنف محيط أو إفراز لازمة من الأزمات. يشاطرنا الباحث سليمان مظهر في اعتبار مختلف الأزمات والكوارث الطبيعية ظاهرة ظرفية ويحصي بعضا منها:"الاعتداءات الظرفية للمحيط الفيزيقي والسياسي: الزلازل، الفيضانات، الجفاف، العدوى، هجوم الحشرات والجراد، القوى الخارجية، استقرار السلطة بصفة اعتباطية، انجرافات ... ".(Slimane Medhar, 1999: 13)

إن الحشد من أقدم الظواهر الاجتماعية التي تدخل في سياق الظواهر الظرفية. أما الدراسة العلمية للحشد فهي فكرة حديثة ظهرت بادئ الأمر عند بعض الفلاسفة والأدباء كصرح أولي تناولها بعدهم كل من تارد Gabriel Tarde ولوبون Le Bon و غيرهم.

إن ظاهرة احتشاد الناس لسبب من الأسباب، ومهما اختلف هذا السبب (مناسبة سارة، ترفيهية، سبب عارض أو حتى بسبب الكوارث والأزمات)، ظاهرة مشتركة بين جميع المجتمعات دون استثناء، تتخذ أشكالا ومظاهر ثقافية عامة تختلف من ثقافة لأخرى ومن أمة لأخرى ومن

رقعة جغرافية لأخرى. أما ما يدفع الناس للاحتشاد (كارثة، ثورة، لعبة...) يحدد درجة عدوانيتهم أو تضامنهم.

والحشد إن كان جماعة ظرفية، مؤقتة وعابرة شأنها شأن الأزمات والكوارث فهي سبب مباشر لعنف فيزيقي تناوله عدة باحثين بالدراسة[7].

حيث ربطها تارد Tarde بالعنف المادي و تحدث عن جرائم الحشود واعتبرها أعلى بكثير من معدل سلوكات الأفراد الخاصة. فالأنانية الجماعية أكثر حدة وأكثر علوا من الأنانيات الخاصة المتجسدة فيه. يتشكل حاصل أصلي للميول المتغايرة و حتى المتناقضة التي يجسدها الأفراد مجتمعين و تظهر رغبة مشحونة بطاقة متحدة في قناعة قوية. .(Daniel Bougnoux, 1993)

يرى لوبون Le Bon أن الحشد أو الجمهرة ظاهرة عارضة ومؤقتة، وهي وضعية منظمة، يبدو ذلك في وحدته وتماسكه كجسم واحد وككائن مستقل له وجوده وكيانه الذاتي. تسود فيه روح عامة ومؤقتة سماها الروح الجمعية l'âme collective التي تتسم بانصهار الشخصية لدى كل فرد و يتقلص الوعي الفردي فتنعدم المسؤولية الخلقية في تصرفات الأفراد وسلوكهم لان سلوك الأفراد داخل الحشد يختلف عن سلوكهم فرادا. فوجود روح عامة تجعل جميع أفراد الحشد يفكرون، يشعرون ويعملون وهم مجتمعين على خلاف ما يفكر ويشعر ويعمل به كل فرد منفردا، وهذا مهما اختلفت أخلاقهم وأفكارهم ومستوياتهم ومداركهم ومهما اختلفت مهنهم، جنسيتهم مركزهم الاجتماعي وعددهم[8].

---

[7]_ حسب سيجموند فرويد في مؤلفه حول "علم النفس الحشود و التحليل الأنا" (1921)، يقول "أن الفرد حشد صغير" (Daniel Bougnoux,1993 :293)

[8]_ إن عدد وحجم الجماعة ، كما يؤكد عليه ، ليسا شرطان ولا ضرورة حتمية لتكون حشد، فاختفاء الذات الشاعرة و اتجاه المشاعر و الأفكار نحو غرض واحد ، هما الصفتان الأوليتان للحشد، فإبان تشكله لا يستلزم دائما وجود أشخاص عددين في مكان واحد بل قد يتألف الحشد من بضع عشرة فردا وقد لا تتوفر هذه الصفة في مئات اجتمعوا اتفاقا.

من الأمثلة التي يضربها لنا لوبون Le Bon ظروف قتل السيد " لوني " مدير سجن " الباستيل"[9] وجرائم جماعة "سانت بارثلمي " التي قامت بتخلية السجون وقتل من فيها[10]. وفي تاريخ ثورة 1871 الفرنسية أمثلة كثيرة من هذا القبيل. اما فيما يخص المجتمع الجزائري فسنقف على سبيل الذكر لا الحصر على احدث أكتوبر 1988 وما هو قائم دائما في الملاعب من عنف.

إذا تأثرت نفوس الأفراد تأثرا شديدا بحادث جلل كفاجعة عامة في الأمة فإن اجتمعوا اتفاقا وهم تحت ذلك التأثير اختفت الذات الشاعرة واتجهت الأفكار والمشاعر نحو غرض واحد. يصير الفرد في جماعة الحشد آلة لا تحكمها إرادته. من اجل ذلك يهبط المرء بمجرد انضمامه إلى الحشد عدة درجات من سلم المدنية ولعله في نفسه كان رجلا مثقف العقل مهذب الأخلاق لكنه في الجماعة ساذج تابع للغريزة، ففيه اندفاع الرجل الفطري في الشدة والعنف والقسوة والحماس ويكون سهل التأثر بالألفاظ والصور. يكون هذا التأثير عن طريق ما اسماه لوبون Le Bon بالعدوى. لهذا يصف لوبون الحشد بالحيوان الكبير le gros animal (لوبون غوستاف، 1988)

القوانين الخاصة بـــ: الروح العامة:

---

[9] _ " بعد استلاء الثائرين على هذا الحصن، أحاطت الجماعة الثائرة بالمدير المشار إليه وصارت الضربات تتساقط عليه من كل جانب. هذا يشير بشنقه و ذاك بضرب عنقه وثالث بربطه في ذيل فرس و هكذا. و بينما هو يدافع عن نفسه فرطت منه رفسة أصابت واحدا من الجماعة ... اقترح أحدهم أن يقطع المضروب رأس الضارب فهلل الجميع بالموافقة... وكان المضروب طباخا خاليا من العمل ... ذهب إلى الباستيل لينظر ما يجري هناك ... ثم ناولوه سيفا ضرب به عنق المدير وكان غير مشحوذ فلم يقطع فألقاه و أخرج من جيبه سكينا صغيرة ذات مقبض أسود واستعان بخبرته في تقطيع اللحوم فساعده الحظ و أتم عمله."(لوبون غوستان، 1988: 182)

[10] _ كانت تلك الجماعة مؤلفة من نحو 300 فردا، قاموا بعملين: كانوا قضاة وجلادين. وأول ما بدأو به أن شكلوا محكمة. رأت تلك المحكمة أن عدد المتهمين كبيرا فقررت أولا قتل الشرفاء والقسوس والضباط وخدام الملك، أما الباقون فيحكم عليهم بناءً على سمعتهم وشهرتهم. كانوا يقتلون والسرور لا يفارق محياهم " يغنون ويرقصون. كانوا يضربون بظاهر السيوف حتى يطول العذاب وكان فريق يأتي بالمتهمين عراة ثم يمزقون أجسامهم مدى نصف ساعة كاملة فإذا تمت للجميع مشاهدة هذا المنظر أجهزوا على المعذبين فبقروا بطونهم. فقتلوا حينها قرابة ال1500 شخصا. ."(لوبون غوستان، 1988: 184-183)

1) سيادة ظواهر المشاركة الوجدانية، بحيث تنتقل الحالات النفسية للأفراد من فرد إلى آخر بشكل أشبه "بالوباء النفسي" كما هو الحال في حالة الفزع أو الهلع.

2) انتشار ظاهرة التضخم أو المبالغة، إذ يبالغ الأفراد في الهلع الذي يسيطر عليهم، ويضخمون من شأنه، فالانفعالات التي تنتشر في الحشد إنما تكبر وتتضخم بشكل يفوق كثيرا الحدود الفعلية له.

3) اختفاء العنصر العقلي في الحشد، لكي يحل محله العنصر الغريزي أو العاطفي. قد يعتنق الحشد أو الجمهرة فكرة خرافية أو يردد رأيا لا يتفق مع أفكار أو آراء أولائك الأسوياء، فعقلية الحشد كعقلية الأطفال، إذ يعمد إلى تصديق كل شيء.

4) امتصاص الحشد لشخصية الفرد، بحيث يقضي على شخصية الأفراد وفرديتهم قضاء تاما. وبالتالي يفقد الفرد صوته في النقد بل وخلقه أحيانا. إذ يجد نفسه قد غرق في جمهرة من الناس غير مسؤولة.

5) تميل الحشود عادة إلى الهدم أكثر من البناء، أكد "لوبون" على وجود عمليتين نفسيتين أساسيتين في الحشد:

العملية الأولى: هي عملية التواصل عن طريق العدوى الفكرية وقد عبر عنها باسم: la contagion mentale وبفضلها تسري الأفكار والحركات من فرد إلى فرد سريان العدوى من الجسم المريض إلى الجسم السليم، فتجعل الأفراد يرددونها بشكل آلي ويحاكونها بشكل لا شعوري، ينطوي ذلك على سلبية دور الفرد وتجرده من ذاتيته الواعية واندماجه في الروح الجماعية.

العملية الثانية: وهي عملية الايحاء la suggestibilité. وبمقتضاها تتجه الأفكار والأفعال من أعلى السلم الاجتماعي إلى القاعدة الشعبية في أسفله. بمعنى أن السوقة والدهماء يساقون عادة عن طريق القادة والزعماء، بوسائل الإغراء والإيحاء إلى اتجاهات جماعية

تسيير وفقا لما يوجهون إليه. وبالتالي تسلب إرادتهم الشخصية. إن ظاهرة التجمع هي التي ولدت في الجماعات قوة إدراك مصالحها وهذا أصل نشأة أو تأسيس (النقابات) التي تضغط على السلطة السياسية، وأصل نشأة غرف التجارة (البورصات) التي تتطلع إلى السيطرة على العمل وأجور العمال. وإن خالفت في ذلك القوانين التي تحكم الاقتصاد وقواعد جمع الثروة.

يرى لوبون أن الجماعات أقدر على العمل منها على التفكير، وقد أصبحت في العصر الحالي (ويقصد في أواخر القرن 19) ذات قوة كبرى . وسوف يقوم حق الجماعات المقدس مقام حق الملوك الاقدسين".

نقد نظرية لوبون: Le bon

1- لم يكن واضحا في تفسير لـنفسية الحشود: هل يفقد الإنسان وعيه بصورة كلية باندماجه في الحشد أو وجود وجدان جماعي يطغى على الإرادات والوجدانات الفردية.

2- غالي لوبون في تصويره لـ سلبية الإرادة الفردية، فمن الناحية الواقعية لا يمكننا أن نلغي الإرادات الفردية في مثل هذه الأشكال من التجمع. فالعقل الفردي قد ينساق في اتجاه جماعي معين، وقد يشاطر الفرد غيره إحساساته ومشاعره ولكن لا تذوب شخصيته أو ذاتيته.

3- إن آراء لوبون في الحشد وبناءه النفسي، لا تكاد تصدق إلا على مظهر باثولوجي (مرضي) من أنماط التجمعات الثورية وغير المستقرة، التي تصل بين أفرادها صلات السخط أو التذمر أو التعصب أوالحماس الفياض.

4- لقد أدت هذه النظرية ببعض العلماء إلى القول بأن نفسية الحشود ما هي إلا ظاهرة بدائية "سابقة على الاجتماع Pré- social"، فالحشود في رأيهم ليست سوى مجتمعات في حالة تكوين لم تصل بعد إلى مرحلة التنظيم والترتيب؛ و يرى البعض أن هذه الحالة تمثل

الطريقة العادية لنشأة الجماعات من بداياتها الأولى وعليه فدراسة الحشد يمكن أن تلقي الضوء على الماضي البعيد وعلى بدء تكوين العقل الجمعي.

5- يؤخذ على هذه النظرية أن لوبون وأنصاره قد استخدموا كلمة حشد Foule في معاني مختلفة، تارة بمعنى جمهرة وتارة بمعنى "جمهور" و أخرى بمعنى "جمعية، أو هيئة أو طبقة" فالخلط واضح بين مجتمعات منظمة وأخرى غير منظمة، ومجتمعات تلقائية وأخرى عمدية. فظواهر الحشد مستقلة استقلالا تاما عن ظواهر الطبقة أو الهيئة أو الجمعية، ذلك أن نفسية هذه الجماعات لا تعتمد على العاطفة أكثر من العقل والتي هي ليست مجردة منه. وهي لا تنزع إلى القوة الوحشية والتدمير كنفسية الحشد غير أن الصفات التي أعطاها لوبون وأنصاره للحشد لا تتوفر إلا في نوع واحد منها، وهي الحشد (أو الجمهرة) التي تتكون بقصد الضرر أصلا مثل الجماهير التي تنتظم بقصد التظاهر أو الاضطراب أو الاحتجاج.

لم يكن لرأي الجماعات وزن في السياسة التقليدية للدول ومنازعات ملوكها، ولم يكن المؤثر في الحوادث التاريخية، ولم يكن لهذا الرأي قيمة أصلا، أما الآن فالسياسة التقليدية أصبحت لا وزن لها ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملاك بل صارت الغلبة لصوت الجماعة. فهو الذي يرسم للملوك خطتهم وتجتهد الملوك في الإصغاء إليه و يبقى حق الانتخاب العام هو الدليل على هذا التطور.

- الاجتماع هو الذي جعلها بهذه القوة والسلطان وهذا أصل تأسيس الجمعيات (السنديكات)، غرف التجارة (البورصات).....

- مثل الجماعات في قوتها الهادمة مثل المكروبات التي تعجل بانحلال الأجسام الضعيفة.

<u>دراسات الكوارث الطبيعية حسب (N.O.R.C)</u>

إلى جانب لويون Le Bon اعتبر Mac Dougall أن سلوك الحشد عملية نكوص Régression واتفقا كلاهما مع فرويد (S) Frend بوصفه بالصيروة البدائية Processus Primaire

(Daniel Bougnoux, 1993)

فالاحتشاد الناتج عن الكوارث الطبيعية يمر حسب دراسة لـ (N.O.R.C) [11] بخمسة مراحل أثناء الأزمة وهي:

المرحلة الأولى: تتمثل في عدم فهم الخطر

المرحلة الثانية: الخروج من المنزل، بصفة عامة بدون فعل أي شيء، مع حالة هلع وفزع واسعين (بكاء، صراح ....). كما تظهر في هذه المرحلة آلاف الإشاعات

المرحلة الثالثة: تتحدد البوادر الأولى لخطة التدخل ك: غلق محرك الغاز، اخذ مفاتيح السيارة، الاختباء في أماكن معينة ...

المرحلة الرابعة: نهاية الأزمة. (Jean Stoetzel, 1963)

أما فولفنشتاين Wolfenstein نضع تصميما آخر لمحتشدات الكوارث يتمثل في:

1- **الفترة السابقة:** رفض فكرة الخطر مع خوف مبالغ من الخطر.

2- **الفترة الحرجة:** وتنقسم بدورها إلى:

- مرحلة الصدمة: حيث تحافظ الأقلية على هدوء الأعصاب، كما تتعرض أيضا الأقلية لرد فعل عال من الهلع، الشلل العارض وغيرها من الأعراض، لكن الأغلبية تبقى متعجبة، هائمة .....

- مرحلة رد الفعل أو التراجع: البدء في محاولة فهم ما يحدث مع ظهور التصرفات المتطرفة: إغماء، صراخ، بكاء عصبي. وبداية ظهور ردود الفعل التطبيقية. يلاحظ Wolfenstein انه في المرحلة الأولى والثانية تبقى التصرفات ذات صبغة فردية.

[11]_ National Opinion Research Center. Université Chicago

– المرحلة الثالثة: تظهر فيها التصرفات الاجتماعية حيث تتسرب الإشاعات ويبرز بعض القادة ويظهر التضامن والتعاون و التآزر الاجتماعي بقوة.

3– فترة ما بعد الحرج: تبقى أثار نفسية وفيزيولوجية تدوم مدة طويلة وقد تدوم مدى الحياة. كما قد تطبع الأفراد بسلوكات معينة كالحديث عنها بدون انقطاع ....

مثل هذه السلوكات لمحتشدات الكوارث مختلفة تمام الاختلاف عن المحتشدات الثائرة في أوقات الأزمات. ففي هذه الأخيرة يظهر ما يسمى بالعدوانية الجماعية أو Lynchage وتكون الأحياء الشعبية والفقيرة الأكثر تعرضا لـ Lynchage.

يتدخل الطابع الثقافي بقوة في تشكيل السلوك المرتبط بسبب الاحتشاد. فآليات تفاعل الأفراد فيما بينهم متميزة جدا من ثقافة لأخرى وحتى في إطار الثقافة الواحدة. على غرار حشود الكوارث فحالات الهلع والفزع والسلوكات الناتجة عنها تعتبر استجابات فطرية وكثيرا ما تكون آلية ولا واعية.

لا يفوتنا في هذا الصدد أن نقف عند فكر ابن خلدون حيث ربط بين العنف والاستلاء على السلطة في الأطوار الخمسة لقيام الدولة، سمَّى الطورين الأولين على التوالي: طور الاستلاء على الملك بالعصبية وطور الاستبداد. و جعل احد أسباب وجود ونشوء علم الكلام متصلا بالخصام والتناظر. (ابن خلدون عبد الرحمن،1991)

بقي الأفراد طويلا معرضين للأخطار الدورية (زلازل، جفاف، فياضانات، جراد، إجتراف، عدوى...)، و لم يكن لديهم لمجابهة هذه الآفات لوقت طويل إلا الطاقة البشرية .

المراجع:

1. ابن خلدون، عبد الرحمن.(2009). *المقدمة*. الجزائر: دار الهدى .

2. بلاس، توماس و آخرون.(1990). العنف و الإنسان، (عبد الهادي عبد الرحمن، مترجم). بيروت: دار الطليعة.

3. لوبون، غوستاف.(1988). روح الاجتماع. ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا. الجزائر: موفم للنشر .

4.BOUGNOUX, Daniel.(1993). sciences de l'information et de la communication : textes essentiels. France : LAROUSSE.